أقصوصتان

[كتب الأديب الفرنسي مارسيل أرلان هاتين الأقصوصتين خاصة للمجلة .]

الصاروخ

فى الخامسة والستين من عمره اشترى أوجست بليزو ، زوج فوزين ووالد إميل ، دراجة جديدة ذات لون أزرق صاف من طراز إيجلون . وقال القوم : « فى الخامسة والستين ، إنه لمجنون ! » وتأهبوا للضحك ولكنهم لم يضحكوا . ولا أدرى أين تعلَّم الركوب . ربما كان ذلك فى الغابة ، وربما كان فى الليل . لقد بدا ذات مساء ممتطيا دراجته وعبر القرية وهو مشدود الأعصاب ، من غير شك ، وثابت النظرات ، ولكنه لم يقع قط . ومنذ تلك الليلة ، كان يذهب كل مساء على دراجته الزرقاء حاملا لامرأة الكاتب لتراً من اللبن كانت تحب أن تشربه ولمّا يزل دافئا من ضرع البقرة . وكانت النسوة يخرجن إلى عتبة أبوابهن فيرفعن أيديهن قائلات : « أتتصابى يا أوجست ؟ » فيحييهن برأسه دون أن يلتفت إليهن . وتبقى فوزين نصف مختبئة بالمخزن تتابع رجلها بنظرها ما وسعتها المتابعة . ويقول لها النساء : « زوجك يا فوزين ، إنه يستطيع أن يعلم الشباب » فتنق غضباً ورضا . لقد تغير شئ ما بالمنزل منذ شراء هذه الدراجة ؛ إذ قل صراخ فوزين وعلا صوت أوجست .

لم يضحك القوم ولكنهم بدءوا يبسمون . وترى أوجست ساعة وصوله منزل الكاتب يدع الدراجة أمام الباب . وهكذا بقيت أول الأمر خمس دقائق ، ثم عشر فى يوم آخر ، ثم ربع ساعة . وأخيرا كان أوجست بليزو يُدخل الدراجة معه . فالكاتب فى الصيد ولا يعود إلا مع الليل . ويردد الناس : « يا لك من لعين يا أوجست ! » حتى سمعوا ذات يوم عواء فوزين يعلو ويشتد كما لم يسمعوه

قط من قبل . ونحن بالمدرسة ، نتدافع بالمناكب كلما تطلعنا إلى إميل .

فى ذلك العام ، كان إميل يحتفل بالمناولة الأولى ، فتغدى كالعادة المتبعة عند زميله فى المناولة (والزمالة فى المناولة تربط بين الزملاء مدى الحياة) وأتى الزميل بدوره ليتعشى عند إميل . وحضرت تلك الوليمة بصفتى جاراً لهم كما حضرتها ابنة عمهم وقد هرعت من المدينة لتشهد ذلك الحفل . وقال الأب وهو يعلق إناء اللبن بدراجته : « اجلسوا لن ألبث أن أذهب حتى أعود » . ورأينا لون إميل المصفر يزداد امتقاعا على حين اقتربت الأم من رجلها وهى تهمس له بكلمات وعليها مظهر التهديد : « وليمة المناولة ؛ يجب ان تسلك سلوكا مناسباً » ولم يبد على أوجست أنه سمعها ، بل امتطى دراجته وهو يبتسم ؛ وكان حليق اللحية ناضرها ، قد وخط الشيب شاربه ولكنه رقيق مهذب ، وكان مشمر الساعدين وطرفا سراويله مثبتان بالمشابك ، وتعرج فى سيره ثم ابتعد وهو معتدل القامة ، مرتفع الرأس ، ومنكباه إلى جانبيه .

كانت فوزين تردد دائماً : « ليس هناك من هم أفقر منا . » ولكنها رغم بخلها صممت على الاحتفال بذلك اليوم ، فسيتكلم الناس عن الوليمة وعن الحساء ، وعن الأرنب وعن المحار وعن النبيذ العتيق الذى أعقب الجديد . وكانت تقول : « أليس هذا عظيما ! كلوا . كل يا هنرى . كل يا مارسيل . كلى يابنة عمى . إن وليمة المناولة لا تقام كل يوم . » ولما رأى إميل أمه بهذا اللطف ، أخذ تزمّته يزايله وهو المتوتر دائماً ، الجاد دائماً ، الخجول أبداً ، فأفرغ كأسه ، وقالت له أمه : « ضع شيئاً من الماء » . « نعم يا أماه ، لا تشغلى نفسك بى . »

ولم يستغرق ذلك إلا قليلا ، وانقضت الساعة وأتى الغسق ، وكنا نمد آذاننا لنتسمع أقل حركة فى الطريق . وأوقد المصباح الصغير . وكانت الأم قد صمتت ، وأظهر ضوء المصباح المرتجف عظام وجهها وثقوبه ، وأنفها الضخم البارز العظام ، وشفتيها الرقيقتين المزمومتين ، وجبهتها بغضونها العميقة تحت منديلها المسترخى . وكانت تبدو منطوية على نفسها ، ثابتة النظرات ، ولكنها غائبة عن المكان . وبدأ يظهر على ملامحها التى عذبها التعب والشراهة امتعاض أعمق منهما ، هو امتعاض الغيرة : غيرة العجوز الممتلئة بغضاً . وكنا قد انتهينا من الأكل . ولم نكن نجرؤ على الحركة . وفى فترات متباعدة كان زميل إميل يرشقنى بنظرات أقرأ فيها : «آه ! لوعرفت ! » ومضى وقت جاهدت لعده ابنة

العم لتتكلم ، وكنا نشعر أنها تقاوم همًّا جاثما لا تدرى له من سبب ، وتساءل فى قلق وفى فزع غامض . وأخيراً صمتت ، وكان سكون مطبق لم نعد نسمع فيه إلا دقات خرساء صادرة من ساعة الحائط .

وكنت قد حفظت تحت مقعدى صاروخاً صغيراً أزمعنا إطلاقه عقب الطعام . وكنت أربت عليه وأعبث بذباله وسط ذلك السكون المطبق الذى أوشكنا أن نصرخ من وطأته . . . وصاح فىّ إميل « يا مارسيل ! » وهو يشير بأصبعه ، وعليه مسحة العتاب ، إلى الصاروخ الذى كنت قد أدنيته من المصباح دون أن أشعر . ورأينا برقاً وسمعنا صفيراً : كان الصاروخ قد قفز من أصابعى وانفجر عند السقف .

رنّت عندئذ ضحكة طويلة مفاجئة عجيبة ، حتى لقد نسى خطئى نفسه من جرّائها . كانت أم إميل قد نهضت وفى عينيها وحشية ، رافعةً ذراعيها ، وأخذ ينبعث من فمها الأسود الأدرم تلك الضحكة العصبية المصحوبة بفُواق وإغماء . وأخيراً ، صمتت ولكنه كان صمت ادهى : فهاهى ذى المرأة تتطلع إلينا وكأنها تنكرنا . ثم تغنّى ، تغنّى وهى التى ربما لم تفتح فمها بالغناء منذ طفولتها . كانت أغنية لا حياة فيها ، تجرى على وتيرة واحدة ، ولم نفهم شيئاً من كلماتها . وقد ذكرتنى بتمتمة رجل أبله كنا نسير وراءه أحيانا فى الطريق حين عودتنا من المدرسة فى المساء .

ووقفنا جميعاً مذهولين . وكان إميل يصيح والدمع ملء مآقيه : « أماه ! أماه ! » وبنت العم تقول : « يابنت عمى ! مادهاك ؟ ماذا حدث ؟ » ولكن فوزين كانت تدفعنا بذراعيها مواصلةً الغناء بصوت جنونى مرتجف تقطعه أحيانا تنهدات ، أو ضحكات السكر ، أو صمت الذهول . وأخيراً استطاع إميل وابنة عمه أن يقوداها إلى غرفة مجاورة ، وكانت تهتز اهتزازاً جنونياً وتصيح وتصرّ على أسنانها . ثم هبطت واستطاعا أن يحملاها إلى فراشها .

وبعد ذلك بقليل ، قالت بنت العم وهى ترفع الأطباق عن المائدة : « لن يحدث شئ ، ربما كان ذلك سوء هضم . لقد استردت قواها ونامت . » وكان إميل منحنياً على بالوعة المطبخ ، يحاول عبثاً أن يقف نزيفاً من أنفه ، وكان عرضة لذلك لأتفه الأسباب ، كشجار أو موضوع إنشاء أو تأنيب فى المدرسة ،

وعندئذ كان يسيل على ذقنه خيط من الدم . وكان المدرس يقول له : « عليك بتناول شيء من الحديد . »

ولم يعد أبو إميل إلى المنزل إلا بعد ساعة أو ساعتين حين كان الليل قد اكتمل . وكنتُ جالساً على أريكة منزلنا أتطلع إلى ظلال القصر والقمر العظيم يلقى نوره عليه ، أتطلع إلى الظلال وهى تغير على الطريق وتجرى إلى موطىء قدمى . ثم برزت من ناحية النافورة عربة يد يدفعها رجلان ويتبعها صبية ونسوة يتهامسون ، فلما مروا أمامى رأيت على العربة جسداً لا حراك به ، كان الكاتب قد عاد من الصيد قبل موعده العادى بقليل .

معجزة الآحد

يخيل إلىّ أنى قد عشقت بنوع خاص بعض أنواع الصمت ، كانت الدنيا تتفتح لى بأجمعها فيها فأبسط نفسى أخيرا وليس بى شئ من الهم . أكانت حياتى أم حياتها تحرك مشاعرى وعواطفى حتى تسيل منى الدموع ؟ وما كنا إلا حياة واحدة .

إنى أفكر فى أصابيح الآحاد أيام طفولتى . أصابيح منتظرة ولو أنها تأتينى بمعجزة دائمة الجدّة . وإنى لأخشى قليلا تذكرها . ولم تكن تبدأ قط فى حبور . حتى ليمكن القول إن يوم الأحد الذى يأتى للآخرين بالراحة، لم يكن بالقياس إلىّ إلا يوم حزن عظيم . ففى بدء اليوم كانت أمنا تعتكف فى الغرفة لتعاود رؤية آثار فقيدنا : بعض الكتب ، ومزمارا ، وخصلة من الشعر ؛ وكنا نسمعها تبكى كأنها أمام قبر لم يُغلق إلا منذ قليل، وهى تنادى :« ڤكتور ! » وعندما تعود إلى المطبخ ، مقطعة الأنفاس من الحزن والصياح ، لم يكن لنا هم أنا وأخى إلا أن نجعلها لا تحس لنا وجودا . ورغم ذلك فقد كان الأحد يوم تغيير ملابسنا ، ويوم تنظيف المطبخ ، ويوم يطهى حساء اللحم على الموقد المتنقل فيسمع له نشيش عظيم . وكان كل ذلك للأسف من أسباب المصاعب والأخطاء والمنازعات . ولقد استطعنا رغم ذلك أن نلبس نفوسنا لباس الأحد ولو أنها لا تذكر يوم أحد واحد مرّ بلا صراخ أو ألم أو تهديد باللحاق عما قريب بفقيدنا .

ولـكن لحظة الهدوء كانت تأتى دائما ، وذلك بعد أن نكون قد يئسنا من إتيانها ، وذلك حوالى آخر الصباح . وكانت أمى بعد أن تغسل وجهها وعنقها تقف أمام المرآة المعلقة فى الحائط وتنزع المشابك من شعرها . وكنت أرقب من مكمن قرب المدفأة ، شعرها الأسود الطويل وهو يسترسل على كتفيها وياله عندئذ من صمت مفاجىء ! لم يعد هناك شجار ولا غضب . هدنة مباركة وفضل من السماء . وكان ورق الجدران الضارب إلى الصفرة ، والسقف المنخفض ، والأرض ، والأثاث بنوع خاص ، الأثاث اللامع المهتز ، كان كل ذلك يفيض بالحب ويقول :« إنى أحيا » ، ويقول : « إنا نحيا معا ، وليس فى ذلك بأس عظيم . » وكنت أنصت وأنا مسحور لصوت المشط فى شعرها وكأنه صوت الحرير . وكان الريف والأحد الجميل ينتظران حولنا ، والأب هناك خلف القرية وتحت الأرض الرملية يبدو أقل منا مطالب . ويا له من صمت ! وهذه السعادة الشاملة التى تجعلنى أضغط أسنانى وأضم يدىّ خشية ألا أستطيع السيطرة على نفسى . وكان القوم فى الخارج يرجعون من القداس . وفى المطبخ أريج الحساء يعـطّره ؛ وفى الحظيرة تتقلب البقرة على فراشها الجديد . وعندئذ وفى ذلك الصمت المطبق كنت أفاجىء أحيانا بلغط تعقبه سعلة خفيفة جدا ، ثم تبدأ أمى ، دون أن تشعر ، تردد أغنية لا أدرى أهى من أيام طفولتها أم من أيام خطوبتها . نعم نحن أيضا ، هذه المرأة الطويلة الواقفة أمام مرآتها ، أمى ، وأخى الذى لا بد أنه يجوب الحديقة ، وأنا بالتأكيد ، أنا الثابت النظرات القابض بشدة على قضبان مقعدى الصغير ـ نحن أيضاً قد واتانا حظنا وأتتنا هبات السماء .

ثم يستغلق صوت أمى وتتلوح جبهتها فجأة وتلقى إلىّ من أعلى كتفها بصوت مؤنِّب :« فيم تضيع وقتك هنا ؟ » تلك خاتمة الساعة وخاتمة المعجزة : معجزة متواضعة ، ولـكن يخيل إلىّ أنّ كلّ ما أتانى منذ ذلك الحين قد وحدته فى تلك المعجزة .

مارسيل أرلانه

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده